تقاسيم على وتر الربابة

قصة بقلم محمد خضير

كان الباب مظلما لانه يقع في زاوية جدار . والليل النائم في الزقاق يقطر ماء . بعد ان هبط درجات عربة من القطار النازل شاهد خزان اسالة الماء خلال ظلمة المحطة كزهرة حديدية مبللة تحملها اغصان متشابكة سوداء ، وكانت السماء مبلطة بالسواد ، تمطر رذاذا ، والحصى يبرق تحت اضواء الاعمدة ، والسكتان الحديديتان لامعتين ، كسيفين اثريين . كان الطريق موحلا ، وكذلك سوق البلدة الرئيسي ، والابواب مقفلة جميعها على جانبي الزقاق ، وسمع صوت حذائيه بوضوح تام ، كانه ادرك لاول مرة انه يمشي .

توقف أمام الباب ثم تركه واتجه نحو النافذة المجاورة له ، فمد قبضة يده المضمومة خلال اعمدتها وطرق بمفاصل اصابعه الخشب الرطب طرقات خفيفة . كان النور يمتد على معطفه العسكري الثقيل بخطوط طويلة من الشقوق المتفرقة في النافذة . وفي ضوء خيط منها رأى ساعته ، فعرف انه امضى ربع ساعة بين المحطة والبيت . كانت الساعة في زمن السادسة الا ربعا . كان يلف رأسه بكوفية بيضاء ، ويمسك بيده حقيبة صغيرة ، وتحت ابطه بطانية ملفوفة حول وسادة .

وقبل أن يطرق الباب ثانية ، فتح وبرز وجه امرأة يطفو في دكنة الداخل : ـ كريمة .

دخل الجندي ، فاحاطته المرأة بذراعيها والصقت مقدمة وجهها في صوف معطفه ، وكأنها تشم رائحة قلبه ، ومضغت الصوف :

ـ هل حدث كل هذا ؟

باب نصف مفتوح يضيء الدهليز ، قبالته السلم الذي يؤدي للسطح ، واسفل السلم يرتكن باب ازرق واطىء يتسلقه الضوء المستطيل قليلا بعد ان يعبر ارض الدهليز الرطبة ، وفي الضوء المتسلق يلقي ابريق نحاسي مسنن الحافة ظلا خلفيا على الباب الازرق .

ـ هل سمعتاني ؟

ـ نائمتان .

ـ هل اوقظتهما طرقاتي ؟

ـ لا .

رد نصف الباب المفتوح ، ووضع حاجياته على الارض المفروشة . كان الضوء فاجرا تحلق فيه اشياء الغرفة الدافئة ، والجدران مقسمة الى أطواق مستطيلة عديدة مرتفعة عن ارض الغرفة ، حافاتها المقوسة العليا قليلة الانحناء . وفي وسط الغرفة مدفأة سوداء امامها كرسي خيزران . وفي الطرف المقابل للباب يلتصق للجدار السرير الواسع يعكس فراشه العشبي تموجات ناعمة ، وعلى حافته البعيدة تستند للجدار وسائد حمراء وسوداء متجاورة طرزت عليها مناظر يابانية رائعة . وباتجاه النافذة المطلة على الزقاق سرير صغير ذو حواجز عالية ، اما الاريكة فهي تحت النافذة .

ـ اشياء جديدة .

ـ الوسائد فقط . كانت لدي النقود التي تركتها لي .

ـ ما عدا المدفأة والمصباح ، فكأن الغرفة قد غسلت بالماء .

ـ ذلك لان الفراش ناعم .

والقى بثقل يده على الفراش في السرير فتغور .

ـ فراش حقيقي . كم انا بحاجة للنوم !

وانتقل ينظر في باطن السرير الصغير . كان وجها الطفلتين متقاربين وجبهاتهما ملتصقتين ، كأنهما تنظران لبعضهما في النوم .

ـ شيء ما ينتقل بين رأسيهما . هما تحلمان .

ـ أأنت في اجازة ؟

جلس على الكرسي الخيزران ، وكانت المرأة ترتدي ثوبا فضفاضا مفصلا من ذات قماش اغطية الطفلتين ، وتشد رأسها بفوطة سوداء ، يحشوها الضوء ثلاثين عاما .

ـ الثوب جديد أيضا ، والمكان دافيء . لا اصدق اني ارى هذه الاشياء الجميلة مع اني لم ابتعد عنها غير عشرين يوما في الاردن . اجلسي لاراك جيدا . كأني دخلت بيت سواي وجالست امرأة غيري. اجلسي هناك لاراك .

جلست خلف المدفأة ، على بساط قطني مخطط بشرائط لونية متوازية ، وكانت المدفأة تفصل بينهما ، وتركت فمها مفتوحا . كانت شفتاها كفلقتي بافلاء ، مضلعتين وصافيتين تحت النور ، ممتلئتين بالدم كما لو خرجت للتو من حمام بخاري ساخن . والآن فقط استطاع ان يلمح الثغرة التي احدثت مكان السن العلوي الاوسط ، ينفذ منها للداخل الغبار اللامرئي وموجات الحرارة والنور .

ـ لقد عطبت اخيرا .

فتحت فمها اكثر :

ـ اجل ، وانت كذلك .

ـ انا ؟ حقا انا معطوب ايضا . كيف عرفت ؟

ـ انت تجلس بصورة مائلة .

ـ آه . كنت في المستشفى . أصبت بساقي .

رفع بنطلونه الى ما فوق الركبة ، وانحنت فتحسست باصابعها الجرح الاحمر النيء وسط شعر الساق الكثيف : كانت تطول وتتمدد حتى لامست السقف بعد ان أكملت الفراغ بين رأسها والسقف بقوالب النور الراقصة المنفصلة عن حمرة ثوبها ، وكانت المرآة الصغيرة المدورة المعلقة في باطن احد أطواق الجدران ، تعكس المصباح المتدلي فوق رأسه وتربطه اليها باسلاك تفتح جروحا في عينيه بسرعة مذهلة ـ مباضع تفتح جروحا نارية مقيتة ، لانفتاحها صرير مفاصل الابواب الثقيلة الرطبة .

ـ لا زلت أجلس في زجاجة خل . دعيني ارى وجهك .

ـ أتعشيت ؟.

ـ لا .

ـ احتفظ ببقية من فطوري . انا صائمة .

لها ابتسامة صعبة ، في اثرها تنكمش لثتها البيضاء فوق سنها المخلوعة . كانت تثني ركبتيها اسفلها . في باطن طوق الجدار امامه صورة دينية معلقة الى جانب المرآة فوق شقوق الجدار ، وعلى حافة الطوق تحتجز شاكوش بيضتين .

ـ سآكل بيضا .

ـ آه حصيلة دجاجاتي لهذا الصباح .

نهض قبلها فتناول بيضة ، وضعها مستقرة على غلاف المدفأة الدائري .

ـ افضلها مشوية . كم دجاجة لديك .

ـ اربع .

ـ كنت تملكين خمسا . أليس كذلك ؟

ـ بلى . انك تذكر . ماتت الخامسة .. كان الامر مضحكا .

ـ بت في السطح ذلك المساء . كنت تقولين انها تبكي .

ـ كأنها كانت تبكي . ومع ذلك فقد انتهت حياتها .

ـ عند الفجر . سمعنا آذان الفجر . كان البرد قويا فوق عند الفجر .

ـ لم يمض وقت طويل . كان ذلك في يوم سفرك .

ـ بلى . بلى . كانت لدي ساعة فقط كي التحق .

ـ كانت الدنيا بردا .. أكان القطار باردا ؟

ـ ليس كثيرا . ولكنه كان مزدحما . كان مزدحما في رجوعي بالامس ايضا . وعانيت صعوبة كبيرة كي اصل لباب العربة . وكانت العربة باردة جدا برغم الزحام .

ـ وهناك ؟

ـ هناك كنا مئات في المستشفى . بيننا محترقون . لست اعرف احدا منهم . كنا نرقد في الظلام ولم نكن ننام . نسمع المدافع باستمرار وتتناوب في التفرقع بعيدا وقريبا .

ـ لا بد انكم تعودتم بعد ذلك على فرقعتها .

ـ كمكسر الجوز اصبحت . غير ان الطائرات كانت تقصفنـــا باستمرار . اسمعها تهبط وحين تنفجر قنبلة ينقطع تنفسي وبصري وكانني اهبط في حفرة ضيقة عميقة دون قرار بسرعة مذهلـــة . يهتـز المبنى فيسقط الجرحى للارض من أسرتهم ثم يموتون . ومـن الصعب انتشال الموتى في الحال . كانوا متشابهين . وفي فتـــرة غياب الطائرات كانت النوافذ تستمر في البريق .. لست ادري اذا ما كنت انام ام لا ، ولكني كنت احيانا احس بنفسي كطير احلق من مكان الى آخر فوق المباني المحترقة وارى الناس يخرجون من بين الخرائب ، غير اني كنت طيرا ثقيلا وسرعان ما تنفرط اجنحتي فاسقط للارض ولكني لا اموت فاهرول حافيا وعاريا بين اطواق من النار . لســت ادري اذا ما كنت نائما حينذاك ام لا . وسرعان ما يهتز المبنى ويتساقط صبغ السقف واسمعهم يتساقطون من اسرتهم ولا ينهضون بعد ذلك .

ـ احدث كل هذا ؟

ـ كل هذا .

ـ أأعمل شايا لك ؟

ـ لا . انا بحاجة للنوم .

ـ انت بحاجة للاغتسال .

تفحص الغرفة باهتمام ، ونظر بين قدميه . كان حذاءاه ملطخين بالطين ، وعداد المدفأة يشير للصفر . خلع معطفه والقاه على مسند الكرسي .

ـ سيكون هذا العيد موحلا .

فك الكوفية عن راسه ، وبدا شعره القصير الملفوف يضم كهوف سوداء وسط مساحة رمادية متعرجة . ثم خلع حذاءه وهبط عـــن الكرسي وجلس على الارض مستندا للسرير . جذبها اليه ، وسحب فوطتها عن راسها ، ومسح وجهها بفمه ثم قبلها برفق ، وادخل يده تحت ثيابها .

ـ جلدك خشن . الم تغتسلي ؟

ـ كل مساء اغتسل . كنا ثلاثتنا نستمع للقطارات في المحطة . هناك قطار يأتي بعد منتصف الليل ولا اعرف اتجاهه . غيـــر اني افتح عيني احاول التغلب على النعاس . اكون حينذاك مغتسلة ومعطرة .

ـ انت معطرة الآن .

ـ كل ليلة .. وكأنك معي تحت ثيابي . وفي جيوبي . وفـــي شعر رأسي . في كل مكان هنا. هنا .. تحت اصابعي .

ـ كانت هناك نساء في المستشفى .

ـ لا تحدثني .

ـ كن عاريات وافخاذهن مرفوعة يتدلى لحمهن الاسود .

ـ حدثني فيما بعد .

كانت لثوبها رائحة قطنية كرائحة لفافات الجروح ، وملأ حدقتيه شعرها . وباتجاه المصباح كانت الشعيرات الدقيقة النافرة عــن مستوى شعرها المرصوف تمتد كأسلاك رخوة بين جدران الغـرفة ، تنطلق منها ذرات متقدة سريعة جدا تمـــلأ الغرفة ، كانفجار مفاجـــيء لقنبلة .

ابعدها عنه ، ونظر اليها طويلا ، طويلا جدا ، وازاح ذراعيهـا عن عنقه :

ـ لا ارغب في ذلك الآن .

ـ أنصعد فوق ؟

ـ كلا . اخرجي لتملأي المدفأة نفطا .

ـ فيها نفط يكفي .

ـ لا ارغب في ذلك ، كريمة .

حين عادت بالمدفأة بقيت واقفة مستندة بمؤخرتها للسرير وتحركت الطفلتان في السرير واصدرت احداهما تنهدة طويلة ثم التفت بيدهـا خارج اعمدة الحاجز .

وماذا سمعت عنا أيضا ؟

ـ ذات مرة اشتريت جريدة ولـم أفهم منها شيئا . كنت اسمع الراديـــو .

أخرجت جريدة من أسفل السرير كانت قد طويت حول ربـابة . كانت العناوين العليا عن الحرب ، وانتشرت صور عديدة فـي أجزاء الصفحة السوداء .

ـ ولكني لم أسمع الراديو عند مجيئي .

ـ أخذت أسامه .

ـ وأغاني الربابة ؟ سأجرب قليلا .

أسند طرف الربابة لفخذه الممـــدودة ، وضبط بأصابعه وتر صندوقها ومرر باليد الاخرى وتر الربابة المشدود في طرفي القـــوس على الوتر المشدود على صندوق الربابة ، فاصدر اصطدام الوتريـــن صكيكا مشوها انتقل سريانه الى أعصـاب أسنانهما ودماغيهمـــا ، فارتجفـــا .

ـ أصابعي لا تطاوعني .

ـ ذلك لانك تركتها شهرا .

حاول ثانية أن يقاوم تصلب الوتر ، حتى اذا التقى الوتران ألفا عواء كعواء صفارات الانذار ، وضجت الغـــرفة بهدير قوي كهدير الطائرات في هبوطها السريع القاصف ، وانفجر ضوء المصباح وتهدمت البيوت اليابانيه في وسائد السرير ، وتناثرت الاوراق المرسومة علـى أثواب المرأة والطفلتين ، والنوت حواجز السرير ثم انقذفت في أرجاء الغرفة مع جسدي الطفلتين ، وملأت الغرفة رائحة القماش واللحـم والشعر المحترق ، تلا ذلك اقدام راكضة ، وصراخ حاد وسط ظـلام دامس كظلام القبور ، وصراخ المرأة :

ـ كف عن ذلك أرجوك . تقطعت أصابعك .

وأمسكت وتر الربابة لتسكته وتمنع الجندي من الاستمرار فـي العزف ، ثم خطفت منه صندوق الربابة . كان وتر الصندوق قـــد أحدث جروحا في أصابع يده ، فمسحها ببدلته الصـــوف ، وكـان يختنق :

ـ لم ترددي شيئا مع اللحن كالعادة . أأصبحت لا أجيد العزف ؟

ـ لم يكن من ألحاننا التي نعرفها ولم أعتد هذا العزف . كنت كالنائم وأنت تجـــرجر القوس دون ضبط سوى ان الوتر قد حـــز أصابعـــك .

ـ لست أصلح لشيء .

ومسح الدم الذي كان يجري من أصابعه بسرواله ، كـــانت يداه ترتجفان .

ـ أحدث لك شيء ؟

ـ في رأسي . رأسي مليء بالحجر . كنت أريد امتاعك . ولكني لا أصلح لشيء .

ـ الغرفة حارة . أأنت مبترد ؟

ـ قدماي محشوتان بالثلج وكذلك جيوب سروالي .

وسحبت بطانية من السرير وغطته بعد أن تمدد على البســاط ووضع رأسه على فخذها المطوية .

ـ أأنت بحاجة لشيء الان ؟

ـ نعم . بحاجة للنوم ، النوم الطويل .

ـ فلتنم .

ـ تذكرت شيئا . كنت أرى شخصا يرتدي ثيابا سوداء يتبـــع الاطباء في المستشفى ، وكان أحيانا يتوقف عند سريري لكنه يستمر في تنقله حين يجد عيني مفتوحتين . وكنت أعرفه . كان ملك الموت .

ـ نم . نم .

ـ كان يرتدي أساور في معصميه وحول قدميه ، فكان يصخب في مشيه ومع ذلك فان النائم لا يستيقظ حين مروره به .

ـ نم . نم . نم .

ـ اني بحاجة للنوم . لا توقظيني غدا كله . واظنني سأنـــام أربعة وعشرين يوما أخرى .

وكان الجندي ينام ، يخوض في دم جروح أصابعه اللزجـــة ، لزوجة الارحام . وكانت امرأته تتسلل هي الاخرى في تلافيف شعره الرمادي القصير باحتراس .. باحتراس .

بغداد — **محمد خضير**